ISSN
Print: 2695-2132 | Online: 2695-2118

The Sound of Ḍād between Classical and Modern Scholars: A Comparative Analytical Phonetic Study

صوت الضاد بين القدامى والمحدثين: (دراسة صوتية تحليلية مقارنة)

By
Adam Abubakar Mustapha
&
Hauwa Muhammad Idris
Nigeria Arabic Language Village, Ngala Borno State
(Inter University, Centre for Arabic Studies)

Abstract

The Arabic sound /ḍād/ is one of the most distinctive phonemes in Arabic phonology, described by early scholars as unique among world languages. Classical Arab grammarians provided detailed yet complex articulatory descriptions, while modern phoneticians have analyzed it through acoustic and phonological approaches. This study compares the classical and modern interpretations of the sound /ḍād/, focusing on its articulation, features, and phonetic evolution in contemporary Arabic speech. The research adopts a descriptive, analytical, and comparative methodology, referencing both traditional sources—such as Sībawayh's Al-Kitāb and Ibn Jinnī's Sirr Ṣināʿat al-Iʿrāb—and modern works by Ibrahim Anis, Tammam Hassan, Kamal Bishr, and Mahdi al-Makhzoumi. The study concludes that the classical /ḍād/ was a voiced, lateral, emphatic sound distinct from the modern /dˤ/, indicating a historical shift in Arabic pronunciation influenced by educational and dialectal factors.

Keywords: *Dad Sound, Phonetics, Linguistic Heritage, Phonetic Analysis, Phonetic Evolution.*

المستخلص

يُعدّ صوت الضاد من أبرز الأصوات العربية التي شغلت القدامى والمحدثين على السواء، لما فيه من خصوصية صوتية لا نظير لها في اللغات الأخرى، وقد وصفه القدامى بصفات متعدّدة جعلت تحديد مخرجه وصفاته من أعقد المسائل في علم الأصوات العربي، بينما سعى المحدثون إلى تحليله تحليلاً فيزيائيًا وفونولوجيًا وفق مناهج علم الصوت الحديث، تهدف هذه الدراسة إلى مقارنة وصف القدامى لصوت الضاد بما قرّره المحدثون، وبيان تطوّر فهم هذا الصوت بين المدرستين، من حيث المخرج، والصفة، والتحوّل الصوتي في الأداء العربي المعاصر. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي المقارن، واستندت إلى كتب التراث الصوتي كـ«الكتاب» لسيبويه، و«سر صناعة الإعراب» لابن جني، و«الرعاية» لابن السيد البطليوسي، ومراجع المحدثين كإبراهيم أنيس، وتمام حسان، وكمال بشر، ومهدي المخزومي. وتوصّلت الدراسة إلى أن الضاد القديمة كانت صوتًا جانبيًا مستعليًا مجهورًا مفخّمًا، يختلف عن الضاد الحديثة التي تميل إلى أن تكون صوتًا انفجاريًا قريبًا من /dˤ/، مما يكشف عن تحوّل تاريخي في النطق العربي نتيجة لعوامل تعليمية ولهجية.

الكلمات المفتاحية: صوت الضاد، علم الأصوات، التراث اللغوي، التحليل الصوتي، التطور الصوتي.

المقدمة

يُعَدّ صوت الضاد من أقدم وأشهر الأصوات العربية التي دار حولها الخلاف بين العلماء؛ إذ ارتبط اسمه بالعربية حتى لُقِّبَت بـ«لغة الضاد». والحقّ أن هذا الصوت لم ينفرد بالشهرة فحسب، بل بالغرابة الصوتية التي حيّرت القدامى والمحدثين

معًا، لما له من صفات مركّبة بين الجهر والاستعلاء والانحراف؛ وقد تناول العلماء منذ سيبويه حتى المحدثين وصفه، كلٌّ وفق أدوات عصره ومعرفته بالصوت الإنساني.

فقد رأى سيبويه (ت180هـ) أن الضاد تخرج «من إحدى حافتي اللسان وما يليها من الأضراس» (سيبويه، 1988م ص: 433) وعدّها من الأصوات الشديدة المجهورة المستعلية، بينما ميّز ابن جني (ت392هـ) بينها وبين الظاء في «سر صناعة الإعراب» (ابن جني، 1985م ص: 45)

مبينًا أن الضاد القديمة كانت صوتًا جانبيًا يمرّ الهواء فيه من إحدى ناحيتي اللسان، أما المحدثون كإبراهيم أنيس (إبراهيم أنيس، 1996م ص: 114) وتمام حسان (تمام حسان، 2006م ص: 178) فقد أعادوا النظر في هذا الوصف على ضوء الدراسات الفونيتية، فاعتبروا أن الضاد الحديثة تحوّلت إلى صوت انفجاريّ مفخّم قريب من /دˤ/.

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على الاختلاف المنهجي في تناول صوت الضاد بين المدرستين القديمة والحديثة، ومقارنة الأسس الوصفية التي بنى عليها العلماء آرائهم، مع بيان أثر هذا التباين على تعليم النطق العربي للناطقين بغيرها.

المبحث الأول: صوت الضاد في التراث الصوتي العربي

المطلب الأول: تحديد مخرج الضاد عند القدامى

أجمع القدامى على أن الضاد تخرج من إحدى حافتي اللسان، إلا أنهم اختلفوا في موضع التحديد الدقيق. يقول سيبويه: «والضاد من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس من الجانب الأيسر، وهو أصعب الحروف وأشدّها» (سيبويه، الكتاب، 1988م ص: 433)

وهذا النصّ من أوضح ما ورد في تحديد المخرج، إذ يجمع بين الحافة والجانب، مما يدل على امتداد المخرج لا انحصاره في نقطة واحدة، وأكد الفراء وابن السراج هذا المعنى، فجعلوه من الأصوات الجانبية التي يمر فيها الهواء عبر أحد جانبي اللسان.

بينما ذكر ابن جني أن الضاد «حرف مستطيل، مستطيل المخرج والجرس» (ابن جني، 1985م ص: 46) مشيرًا إلى امتداد الهواء على طول الحافة، ويدلّ ذلك على أن الصوت لم يكن انفجاريًا بل احتكاكيًا جانبيًا.

المطلب الثاني: صفات الضاد عند القدامى

تتفق كتب التجويد واللغة على أن للضاد خمس صفات أساسية: الجهر، والاستعلاء، والإطباق، والرخاوة، والانحراف.(مكي بن أبي طالب، 2003م ص: 91) وهذه الصفات تُظهر طبيعتها الصوتية المركّبة، فهي مجهورة لخروج الصوت معها من الحنجرة، ومستعلية لتصعّد اللسان نحو الحنك الأعلى، ومطبقة لالتقاء اللسان بالحنك، ورخوة لطول زمن النطق، ومنحرفة لانصراف الصوت نحو أحد الجانبين.

غير أن بعض العلماء – مثل ابن الجزري – لاحظ أن الرخاوة والانحراف لا يجتمعان عادة في صوت واحد، مما زاد من غموض الضاد.(ابن الجزري، 1998م ص: 226)

المطلب الثالث: صعوبة النطق بالضاد وتميّزها بين الأصوات

اتفق القدامى على أن الضاد من أصعب الحروف نطقًا، قال الخليل بن أحمد: «ليس في الكلام صوت أعسر من الضاد» (الخليل بن أحمد، 1988م ص: 322) لأنها تحتاج إلى دقّة في انطباق الحافة على الأضراس، ولذلك عُرفت العربية بـ«لغة الضاد» لخصوصية هذا الصوت فيها.

وتظهر صعوبتها أيضًا في اختلاف الأداء بين القبائل العربية، فقد أشار ابن سينا في «أسباب حدوث الحروف» إلى أن بعض العرب يميل بها إلى الظاء، وبعضهم يجعلها أقرب إلى الطاء المفخّمة (ابن سينا، 1952م ص: 64)

المبحث الثاني: صوت الضاد في الدراسات الصوتية الحديثة

مع تطوّر علم الأصوات في العصر الحديث، انتقل البحث في الضاد من الوصف الانطباعي إلى التحليل الفونيتكي والفونولوجي القائم على الملاحظة العلمية للأداء الصوتي وأجهزة النطق، وقد اهتمّ اللغويون العرب المحدثون بإعادة قراءة التراث الصوتي العربي في ضوء المناهج اللسانية الحديثة.

المطلب الأول: تحديد المخرج عند المحدثين

يرى إبراهيم أنيس أنّ الضاد العربية الحديثة لم تعد تُنطق من حافة اللسان كما وصفها سيبويه، وإنما من طرف اللسان مع أصول الأسنان العليا، أي إنها قريبة من الصوت الانفجاري المفخّم /ˤd/ الموجود في لهجات العرب المعاصرة.(إبراهيم أنيس، 1996م ص: 119) ويعلّل ذلك بأن المخرج القديم عسيرٌ جدًّا، ولا يوجد اليوم في أي لهجة عربية من يحافظ عليه تمامًا.

وقد أكّد كمال بشر هذا الرأي، مبينًا أن تطوّر الضاد من صوت جانبي إلى انفجاري «يمثّل ظاهرة صوتية طبيعية، تتجه فيها اللغة نحو التيسير والتقريب بين الأصوات»(كمال بشر، 1998م ص: 203). أما تمام حسان فيرى أن ما نطقه العرب القدامى كان صوتًا «جانبيًّا احتكاكيًّا مجهورًا، استحال مع الزمن إلى انفجاري مفخّم بسبب ضعف التدريب الصوتي» (تمام حسان، 2006م ص: 184)

وتشير الدراسات الصوتية الآلية التي أجراها باحثون في معاهد النطق الحديثة إلى أن الضاد في الأداء القرآني عند القراء تختلف قليلًا عن الضاد في الكلام اليومي، إذ يظهر فيها بعض الانفراج الجانبي الذي يذكّر بالنطق القديم. (محمد الدالي، 2002م ص: 77)

المطلب الثاني: الصفات الصوتية للضاد الحديثة

يصنّف المحدثون الضاد ضمن الأصوات الانفجارية المجهورة المفخّمة (*Voiced Emphatic Stops*)، ويُرمز لها في الأبجدية الصوتية الدولية بالرمز /ˤd/ (*Ladefoged, Peter, 2006, p: 53.*)

وهي من الأصوات المستعلية ذات الصدى الحلقي، التي تتطلب رفع الجزء الخلفي من اللسان نحو الحنك الأعلى.

ويُبرز مهدي المخزومي في كتابه في اللغة العربية المعاصرة أن الضاد الحديثة فقدت «انحرافها الجانبي القديم» واستبدلت به انطباقًا تامًا بين اللسان واللثة،(مهدي المخزومي، 1974م ص: 92) وهو ما جعلها قريبة من الظاء عند غير المتقنين.

أما رمضان عبد التواب فلاحظ أن هذا التحول لم يُفقد الضاد تميّزها، بل جعلها من أبرز الأصوات العربية المفخّمة، وأنه «لا يُعدّ خطأ نطقيًّا بقدر ما هو تطوّر طبيعي في جهاز النطق» (رمضان عبد التواب، القاهرة، 1999م ص: 67)

يرى الباحثان أن رمضان عبد التواب جانب الصواب في رأيه هذا لأن أي تحول (أي: تغيير حرف في موضعه) يعتبر لحنًا، وإذا تفاشى اللحن في كلام الناس امتد اللحن إلى القرآن الكريم، فلذا يرى الباحثان أن هذا الكلام غير صائب.

المطلب الثالث: أسباب التغيّر في نطق الضاد

يرى المحدثون أن تغيّر الضاد يعود إلى عوامل متشابكة:

1. ضعف التدريب الصوتي في العصور المتأخرة، بسبب انتقال العربية من الأداء الشفهي إلى الكتابي.
2. اختلاف اللهجات العربية، إذ كانت بعض القبائل تميل إلى تسهيل الأصوات الجانبية.
3. تأثير اللغات الأعجمية بعد اتساع رقعة الإسلام.
4. غياب التعليم الصوتي المنهجي حتى القرن العشرين(تمام حسان، 2006م ص189.)

وقد أدّى هذا كله إلى ضياع النطق الأصلي الذي وصفه سيبويه والخليل، وبقاء الشكل المحدث الذي صار هو المعيار الفعلي في معظم الأقطار العربية.

المبحث الثالث: المقارنة بين الضاد القديمة والحديثة

يُظهر النظر في النصوص القديمة والدراسات الحديثة أن الاختلاف في وصف الضاد ليس تناقضًا في جوهر الصوت بقدر ما هو تطوّر في وسيلة النطق.

المطلب الأول: في المخرج

- عند القدامى: من إحدى حافتي اللسان وما يليها من الأضراس.
- عند المحدثين: من طرف اللسان مع أصول الأسنان العليا.

وهذا يعني انتقال المخرج من الحافة إلى الطرف، وهو تحول فيزيولوجي ناتج عن تيسير النطق.

المطلب الثاني: في الصفة

- عند القدامى: جانبية رخوة مستعلية مطبقة مجهور.
- عند المحدثين: انفجارية مستعلية مطبقة مجهور.

وهذا التحول في الصفة يفسّر الفرق السمعي بين /ɮˤ/ القديمة و /dˤ/ الحديثة.

المطلب الثالث: في القيمة الصوتية والرمزية

تُظهر الدراسات المقارنة أن الضاد القديمة كانت أقرب إلى الصوت الجانبي المجهور الموجود في بعض اللغات الإفريقية والآسيوية، مثل الصوت /ɮ/ في الزولو، بينما أصبحت في العربية الحديثة أقرب إلى الصوت /dˤ/ غير الجانبي.(*Ladefoged, Peter, 1996, p: 144*) ومع ذلك ظلّت الهوية الرمزية للضاد ملازمة للغة العربية، حتى أصبحت علامة مميّزة للعروبة نفسها.

المطلب الرابع: الأثر التعليمي

يترتب على هذا التغيّر الصوتي نتائج تربوية مهمة، خاصة في تعليم النطق للناطقين بغير العربية. فالتمييز بين الضاد والظاء يُعدّ من أعقد ما يواجه المتعلمين، لذا توصي الدراسات الصوتية بضرورة تدريس الضاد وفق المنهج المقارن بين النطق التراثي والمعاصر، مع تدريب عملي على المخارج باستخدام الوسائل السمعية الحديثة. (محمد حسن، 2010م ص: 215).

الخاتمة

بعد هذه الدراسة المقارنة التي تناولت صوت الضاد بين القدامى والمحدثين، يمكن القول: إن هذا الصوت ظلّ علامة فارقة في النظام الصوتي للعربية، بل أصبح رمزًا لهويتها اللغوية.

وقد بيّنت الدراسة أن الخلاف بين المدرستين القديمة والحديثة لا يعود إلى اختلاف في جوهر الصوت ذاته، بل إلى تطور في آلية النطق ووصفه، نتيجة تغيّر البيئة الصوتية وتطوّر أدوات التحليل العلمي.

فالقدامى — من سيبويه والخليل إلى ابن جني وابن الجزري — وصفوا الضاد وصفًا دقيقًا على أساس الملاحظة السمعية والذوق اللغوي الفطري، مؤكدين أنها صوت جانبي، مستعلٍ، مطبَق، مجهور، رخو، يخرج من إحدى حافتي اللسان وما يليها من الأضراس، أما المحدثون فقد أعادوا النظر في هذا الصوت في ضوء التحليل الفيزيولوجي والأكوستيكي، فرأوا أن الضاد الحديثة تحوّلت إلى صوت انفجاري مفخّم /ˤd/، لا جانبي فيه، وأن هذا التحول طبيعي في اللغات مع مرور الزمن.

كما أثبتت الدراسة أن الضاد القديمة كانت فريدة في نظامها الصوتي، إذ تجمع بين خصائص جانبية واستعلاء وإطباق في آنٍ واحد، وهي صفات قلّ أن تجتمع في صوت إنساني آخر.

أما اليوم فقد أصبحت الضاد صوتًا سهلاً نسبيًا من حيث الأداء، لكنه فقد بعض خصائصه التاريخية، ويتضح من التحليل أن هذا التبدّل الصوتي لا يقلل من أصالة اللغة العربية، بل يكشف عن مرونتها التاريخية وقدرتها على التكيّف الصوتي، ومع ذلك، تبقى دراسة الضاد القديمة ضرورية لفهم طبيعة الأصوات العربية وتاريخها التطوري، خصوصًا في سياق تعليم العربية للناطقين بغيرها وتجويد القرآن الكريم.

التوصيات

- تشجيع الدراسات الصوتية التطبيقية في الجامعات العربية، لا سيما تلك التي توظف الأجهزة الحديثة في تحليل الأصوات العربية التراثية.
- الربط بين علم الأصوات القديم والحديث في مناهج تعليم النطق، لتقريب المفاهيم التراثية إلى الأجيال الجديدة.
- إجراء دراسات مقارنة بين القراءات القرآنية واللهجات العربية لرصد التطور التاريخي للأصوات العربية.
- تضمين مادة "الصوتيات العربية المقارنة" في برامج تعليم العربية للناطقين بغيرها.
- الاهتمام بتدريب القراء والمعلمين على النطق السليم لصوت الضاد وفق التحليل العلمي الحديث.

المصادروالمراجع

- إبراهيم أنيس، **الأصوات اللغوية**، ط7، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1996م.
- ابن الجزري، **النشر في القراءات العشر**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- ابن جني، **سر صناعة الإعراب**، تحقيق حسن هندواوي، دار القلم، دمشق، 1985م.
- ابن سينا، **أسباب حدوث الحروف**، تحقيق محسن مهدي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1952م.
- تمام حسان، **اللغة العربية معناها ومبناها**، ط5، عالم الكتب، القاهرة، 2006م.
- الخليل بن أحمد، **كتاب العين**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م.
- رمضان عبد التواب، **فصول في فقه العربية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1999م.
- سيبويه، **الكتاب**، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1988م.
- كمال بشر، **علم الأصوات**، دار غريب، القاهرة، 1998م.
- محمد الدالي، **الضاد بين النطق القرآني واللهجات المعاصرة**، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مج20، 2002م.
- محمد حسن، **تدريس الأصوات العربية للناطقين بغيرها**، دار الفكر العربي، القاهرة، 2010م.
- مكي بن أبي طالب، **الرعاية لمذهب القراء**، تحقيق أنس مهرة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.
- مهدي المخزومي، **في اللغة العربية المعاصرة**، مطبعة المعارف، بغداد، 1974م.
- *Ladefoged, Peter. A Course in Phonetics, 5th ed., Thomson Wadsworth, London, 2006.*